مجلة الآداب واللغات، المجلد 25 ، العدد 01 (2025)،ص ص: 54 - 59

مجلة الآداب واللغات
جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان / الجزائر
ISSN : 2676-1963/ EISSN: 2676-167X
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/416



الشعر والنقد في عصر حازم القرطاجني مداخل أولية إلى كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء

."Poetry and Critism in Hazim Al-Qartajani's Era.""Preliminary Introductions to the Book Minhaj Al-BulaghawaSiraj Al-Adaba".

شاهيناز يسمة بن زرقة*،جامعة تلمسان، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي،الجزائر،
benzergua1975@gmail.com
أ.د محمد مرتاض، جامعة تلمسان، cmortad2002@yahoo.fr

تاريخ المقال

الإرسال:2025-02-07 **القبول:2025-02-23** **النشر: 2025-03-10**

الكلمات المفتاحيه

الشّعر.
النّقد.
حازم القرطاجني.
منهاج البلغاء وسراج الأدباء.

ملخص البحث

عاش حازم القرطاجني في فترة عرفت فيها الأندلس فِتنا كثيرة وأحداثا أليمة انتهت بسقوط مدنها واحدة تلو الأخرى، فاضطر حازم للهجرة إلى بلاد المغرب وتونس لعله يجد فيها المناخ الثقافي الملائم لطموحاته الفكرية، ولما تسنى له ذلك قدّم للنقد الأدبي خلاصة فكر متنوّر استقى معارفه ومناهجه من التراثين العربي واليوناني وزاد عليهما، فكان " كتابه منهاج البلغاء وسراج الادباء " الذي أثار فيه جملة من القضايا حول حال الشعر في عصره المنقسم سياسيا، وكيف ساقته هذه الظروف إلى تقديم محاولة إصلاح للنموذج الشعري الذي فقد هيبته بسبب هوان الشعر والشعراء، لذلك تسعى هذه الدراسة إلى رصد موقف حازم من هذه القضية التي أرّقته كشاعر وناقد، وكيف تناولت أبواب المنهاج مشروعه النقدي.

Abstract

Hazem Al- Qatrajini had lived during a period of time where countless tribulations and painful events had taken place in Andalus, which ended with the downfall of its cities one after the other. Therefore, Hazem was obligated to immigrate towards the land of Morocco and Tunisia yearning for the cultural atmosphere suitable for his intellectual ambition. Once he had this chance, he provided the Arabic literally criticism the essence of profound ideas. His knowledge and methods were heavily inspired by the Arabic and Greek heritage, which he enabled in his book entitled "methology of eloquent and literals" that included number of the chaotic state of poetry in the political divided era he had to witness.

Keywords

Poetry.
Criticism.
Hazme Al-Qatajini.
Menhaj Al-BulaghawaSiraj Al-Adaba.

*المؤلف المرسل

Along with the circumstances that led him to present an attempt to reform the poetic model to its long lost prestige on the hands of humiliation of poets and poetry.

Therefore this study aims to highlight Hazem's stand regarding this issue that preoccupied him as a poet and a critic.

1. مقدمة:

مثل حازم القرطاجني (608هـ/ 684هـ) في عصره،نموذج المثقف المهموم بالوضع السياسي المتردي،والمؤمن بجدوى العلم والثقافة للنهوض من مستنقع الانقلابات والحروب والانقسامات التي أوهنت جسد الأمة الإسلامية وجعلتها عرضة للانكفاء والتقهقر. صحيح أن تلك المرحلة التي عاشها حازم وابن خلدون ومن قبلهما ابن رشد شهدت ازدهارا علميا وطفرات معرفية مهمة، إلا أنها لم تقدّر في حينها كما يجب، فما قدمه حازم على المستوى النقدي يضاهي الفتوحات الفلسفية عند ابن رشد وقيمة البحث الاجتماعي عند ابن خلدون، ولكن لم يُكتب لهذه الإنجازات أن تتقدم بعدهم لعدة أسباب سيفصّل القول فيها حازم القرطاجني في مواضع متعددة من كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء".

2. حال الشعر والنقد في عصر حازم:

اشتهر حازم بثقافته الواسعة، ومعارفه المتعددة، وظهرت ملامح نبوغه منذ صباه، حين أقبل جادا على طلبا لعلم حتى بلغ عدد شيوخه الألف، وقد قدّم له السيوطي في "بغية الوعاة" ترجمة طويلة تُجمل ما وصل إليه حازم في مجال العلم والتأليف، إذ وصفه بشيخ البلاغة والأدب، وأثنى على اختياراته الفائقة واختراعاته الرائقة ومدى حفظه للأشعار والأخبار «فهو حمَّاد رُوّاتها وحمّال أوقارها، يجمع إلى ذلك جودة التصنيف وبراعة الخط، ويضرب بسهم في العقليات، والدّراية أغلب عليه من الرواية ....». **(جلال الدين السيوطي، 1964م ، ص 491)**

وقد انتبه أستاذه أبوعلي الشلوبين – تلميذ ابن رشد – إلى استعدادات حازم الخارقة، فلم يجعل منه راوية للشعر، أو لغويا أو نحويا، بل حمله على الأخذ بالعلوم الهيلينية، ووجهه إلى دراسة المنطق والخطابة والشعر، فأقبل على مطالعة ما أشار عليه به أستاذه من مصنفات شيخه ابن رشد وكتب غيره من الفلاسفة كالفارابي وابن سينا. **(ينظر: مقدمة محمد الحبيب بن الخوجة لكتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء " لحازم القرطاجني، 1986م ، ص ص 53-54)**، و وجود حازم في القرن السابع الهجري، سمح له أن يطّلع على أغلب المنجزات النقدية والبلاغية التي سبقته، كما تسنّى له أن ينهل من شروح الفلاسفة الذين تناولوا أرسطو بالتلخيص والشرح والتأويل، فتكّون لديه رافدين معرفيين: رافد عربي وآخر يوناني.

اجتمعت إذن كل الظروف المعرفية عند حازم لتصنع منه مثقفا موسوعيا جادا، يستطيع أن يقدّم للثقافة العربية فكرا نقديا متطورا، ولكن كيف كان حال الشعر والنقد في عصره؟ وماذا قدّم حازم لهما وفيهما؟

يجزم حازم أنّ الشعر في عصره قد انحدر إلى الحضيض، فلم يعد هناك شعراء، بل أشباههم من أفسدت العجمة ألسنتهم، فاختلّت طباعهم واستعانوا بالصنعة لدرء النقص، فغاب عنهم الإبداع الذي هو مدار العملية الشعرية، يقول حازم متأسفا «وإنما هان الشعر على الناس هذا الهوان لعجمة ألسنتهم، واختلال طباعهم، فغابت عنهم أسرار الكلام، وبدائعه المحركة جملة، فصرفوا النقص إلى الصنعة، والنقص بالحقيقة راجع إليهم، موجود فيهم ...». **(حازم القرطاجني، 1986، ص ص 124-125)**، إذ أصبح الشعر لديهم كلاما يقوم على جهة الوزن والقافية، فشتّان عنده بين الحصير المنسوج من البرْدى – وهو شعر تلك المرحلة – وبين الشعر الحقيقي الذي شبّهه بالحلة المنسوجة من الذهب والحرير، ولا اشتراك بين النوعين هنا إلا في النسج / الوزن.

لم يعد للشعر في عصر حازم تلك المكانة المقدسة التي عرفها منذ العصر الجاهلي، إذ أصبح كل الناس يخوضون فيه، فتشابه عليهم الكلام، ولم يعودوا يميزون بين الشعر الجيد والشعر الرديء «بل كثير من أنذال العالم – وما أكثرهم! – يعتبر أن الشعر نقص وسفاهة». **(حازم القرطاجني، 1986، ص 124)**

ثم يصف حازم هؤلاء بالزعانفة الذين حطوا من قيمة الشعر، ونزّلوه منزلة أخسّ العالم وأنقصهم، وهو حال يناقض تماما ما كانت عليه منزلة الشاعر الذي قال عنه ابن سينا «كان الشاعر في القديم ينزل منزلة النبي، في يعتقد قوله ويصدق حكمه، ويؤمن بكهانته». **(حازم القرطاجني، 1986، ص 124)**

لقد أفرزت تلك الحالة من الفوضى الشعرية وضعا أقلق حازما وأرّقه، وهو الشاعر المجيد المطلع على التراث الشعري العربي، والمعجب بفحوله الذين لم يتكلّف أشباه الشعراء في عصره عناء قراءتهم للاحتذاء بهم «ولا من ذهب مذاهبهم في تأصيل مبادئ الكلام وإحكام وضعه، وانتقاء مواده التي يجب نحتها منه، فخرجوا بذلك من ميع الشعر ودخلوا في محض التكلم». **(حازم القرطاجني، 1986، ص 10)**

إنّ إدراك حازم لأسرار الصنعة الشعرية بميزانه النقدي الذي ارتضته فطرته ودراسته للموروث الشعري العربي هو الذي حرّك فيه الرغبة لتصحيح الأمور وإعادتها إلى طبيعتها وأصولها وذلك «لكثرة القائلين المغالطين في دعوى النظم وقلة العارفين بصحة دعواهم من بطلانها لم يفرّق الناس بين المسيء المسفّ إلى الاسترفاد بما يحدثه، وبين المحسن المرتفع عن الاسترفاد بالشعر » **(حازم القرطاجني، 1986، ص 125)**، وهكذا تساوى في هذه الصنعة الرفيع مع الوضيع، وهو وضع جعل حازما يصف هؤلاء المغالطين وأتباعهم بالأخسّاء والمستهينين بقيمة الشعر، والذين جعلوا المحسن الجيد يهجر هذه الصنعة.

لقد كان تأليف كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء وسيلة حازم لتقويم أمور الصناعة التي فسدت في عصره، في محاولة من لتصحيح الوضع الذي آل إليه الشعر، وانتشاله من السوقية والابتذال في الألفاظ والمعاني والنسج، فسعى إلى معالجة المشكلات التي تفشّت أكثر في عصره، وأن يجد لها حلولا وفق منهج قويم، رمى فيه بكل ثقله الفكري والفلسفي لعله ينقذ ما يمكن إنقاذه «فاليأس الذي كان يساور نفس حازم بسبب وضع الشعر والنقد في عصره لم يمنعه من أن يكون مخلصا في رسم منهجه النقدي ،وقلة ثقته في المستوى الثقافي لأبناء عصره، لم يحفزه على النزول إلى مستواهم» **(إحسان عباس، 1978م، ص 542)**، فرغم كل الظروف المتردية التي أحاطت به، إلا أنها لم تمنعه من المغامرة فيخوض غمار التجربة النقدية والإصلاحية الجريئة، وهذه المغامرة الجريئة في الحقيقة لم يكتب لها المجد التاريخي والاهتمام الذي يليق بها إلا بعد فوات عصره، فغايته في الإصلاح لم تتحقق في حياته، وبالتالي لم يشهد إنقاذا للشعر كما كان يطمح، ولا تأثير النقد ليوجه الصناعة الشعرية.

ورغم أن محاولة حازم كان مآلها الإهمال وقلة التقدير في حينها، إلا أنّ اللاحقين ما إن انتبهوا إليها، اكتشفوا تفرّد تجربته وأصالتها وتميزها عن كل الجهود النقدية التي سبقتها بل تجاوزت منجزات النقاد والبلاغيين والفلاسفة، نظرا لثقافة حازما لمتنوّرة التي جعلته ضليعا في الشعر والنقد والعروض والقوافي، مُلّمّا في ذات الوقت بالثقافة اليونانية بعد قراءته الفاعلة لتلخيص ابن سينا لكتاب فن الشعر لأرسطو، والتي أعانته على صياغة القوانين الكلية التي تُعلي مكانة الشعر بالتأكيد على جانب القيمة «وتأكيد جانب القيمة يعني وضع منهاج يهدي عملية التذوق والتفسير، وبالتالي التقييم على مستوى المتلقي، ووضع سراج يضيء عملية التعلم على مستوى الإبداع». **(جابر عصفور، 1982، ص 135)**

هكذا إذن حاول حازم في القرن السابع الهجري أن يصلح حال الشعر والنقد، بتأكيده على جانب القيمة بالقوانين على تصحّح اختلال طباع الشعراء والمتلقين، وقد أنصف التاريخ والنقد حازما، فأصبحت نظريته في الشعر تمثل تكاملا لمفهوم بالتقاء الروافد الفكرية العربية واليونانية التي أسهمت في نضج مشروعه النقدي وذلك من خلال كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء.

3. كتاب المنهاج:

3. 1. مضمون الكتاب ومنهجه:

يُعد كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء تجربة نقدية مُتقدمة ورائدة خاضها حازم القرطاجني في ظروف لم تكن مواتية لإحداث تغيير إصلاحي واضح في التجربة الإبداعية العربية كما كان يطمح صاحبه، فهذا الكتاب لم ينل حظه من الاهتمام والتقدير إلا في العصور التي تلته، وقارئه اليوم سيقف على مستوى النضج الفكري والفلسفي الذي بلغه حازم آنذاك، ومدى قدرته على استيعاب الجهود البلاغية والنقدية التي سبقته ورغبته في تجاوزها بتقديم نظرية متكاملة للشعر بدراسته للظواهر ولما وراء الظواهر، أي القوانين للوصول إلى مرحلة التنظير، فهو يرى أن مهمة البلاغي المنظر في إطار العلم الكلي أو البلاغة المعضودة بالمنطق والفلسفة هي الوصول إلى مرحلة استخلاص القوانين الكلية أو الشروع في إنجازها لكي «نتخطى ظواهر هذه الصناعة وما فرغ الناس منه إلى ما وراء ذلك مما لم يفرغ منه» **(حازم القرطاجني، 1986، ص 51)**، كانت إذن مهمة حازم في هذا الكتاب هي أن يضيف إلى المسائل والقضايا التي خاض فيها البلاغيون والنقاد قبله، ولكنهم لم يفرغوا من القول فيها، فأراد أن يقدم تصورا متطورا لتلك المسائل في إطار القراءة التفاعلية بين التراث اليوناني والتراث العربي.

3. 2. أقسام الكتاب:

بضياع القسم الأول من كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء فقد المهتمون بتراث حازم جزءا مُهما من التصورات التي انطلق منها لتأسيس مشروعه النقدي، وذلك لغياب مقدمة نظرية عامة تُجمل أفكاره ومراميه، ولكن ماوصلنا من الكتاب، وحققه محمد الحبيب بن الخوجة يستطيع أن يدرأ قليلا هذا النقص، حيث يعاود حازم الإشارة إلى بعض المسائل التي أثارها في القسم الأول المفقود، كما جاء في قسم المعنى والنظم، أوحين يورد غيره من المؤلفين في كتبهم كلاما لحازم من المنهاج، لم يرد في النسخة التي وصلت منه. **(ينظر: الملحق الذي وضعه المحقق محمد الحبيب بن الخوجة في آخر كتاب المنهاج. ، ص ص 384-393)**

يتألف القسم الثاني من كتاب المنهاج من ثلاثة أقسام متمايزة، همُّه البحث عن القوانين الشعرية لتأسيس نظرية للشعر العربي تتجاوز المنجزات السابقة سواءً كانت عربية أو يونانية، وهذه الدعوة للإضافة والزيادة والتجاوز كانت مشروعا مؤجلا لأبي علي بن سينا الذي قال بعد فراغه من تلخيص كتاب فن الشعر لأرسطو «هذا هو تلخيص القدر الذي وجد في هذه البلاد من كتاب الشعر للمعلم الأول، وقد بقي منه شطر صالح ولا يبعد أن نجتهد نحن فنبتدع في علم الشعر المطلق وفي علم الشعر، بحسب عادة هذا الزمان، كلاما شديد التحصيل والتفصيل، وأما هاهنا فلنقتصر على هذا المبلغ». **(حازم القرطاجني، 1986، ص 69)**واصل حازم مشروع ابن سينا للوصول إلى علم الشعر المطلق في سياق الاجتهادات البلاغية والفلسفية، فيقول: «وقد ذكرت في هذا الكتاب من تفاصيل هذه الصنعة ما أرجو أنه من جملة ما أشار إليه أبو على بن سينا»**(حازم القرطاجني، 1986، ص 70)**، ثم يتقدم حازم في أقسام الكتاب الثاني والثالث والرابع ليبحث في المعاني والمباني والأسلوب على الترتيب.وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة موزع إلى أربعة أبواب سمى كل باب: منهجا، ثم جعل المناهج أو الأبواب متألفة من فصول دعاها على التعاقب بمعلم أو معرف، ثم يتبعها غالبا ملاحظات بلاغية يجمعها في فصول ختامية، يعنون لها بـ"مأّمّ" أو "مآم" على الإفراد أو الجمع، كما جعل فقرات المنهاج متمايزة هي أيضا في كل فصل من فصول الكتاب، فعنون لها بلفظين على التعاقب: إضاءة وتنوير.

ويبحث القسم الثاني في المعاني، وما تعرف به أحوالها من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منفرة لها، ويعرض حازم فيه لمشاكل كثيرة يتناولها في أربعة مناهج مختلفة.**(ينظر: مقدمة محمد الحبيب بن الخوجة لكتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء " لحازم القرطاجني، 1986م ، ص ص 96-101)**

ويخوض القسم الثالث في المباني والأعاريض الشعرية، ويتألف من أربعة مناهج تبحث في

الأوزان وما تخضع له من قوانين وأحكام بلاغية لها علاقة باللّفظ والتركيب والبحر والقافية وكلما يتقوّم به فن النظم.**(ينظر: مقدمة محمد الحبيب بن الخوجة لكتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء " لحازم القرطاجني، 1986م ، ص ص 101-108)**

أما القسم الرابع والأخير، فخصصه حازم للأسلوب، ووزّعه أيضا على أربعة مناهج، تطرّق فيه إلى الطرق الشعرية وما تنقسم إليه وما ينحى بها نحوه من الأساليب، والتعريف بمآخذ الشعراء وما تعتبر به أحوال الكلام المخيّل المقفى الموزون في جميع ذلك من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها من القوانين الكلية.**(ينظر: مقدمة محمد الحبيب بن الخوجة لكتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء " لحازم القرطاجني، 1986م ، ص ص 108-111)**

وقد استعان حازم في كل قسم ومنهج بأدوات الصياغة الحكمية الفلسفية لدراسة الشعر وتقديم نظرية واضحة المعالم له.

3. 3. منهجه:

نلاحظ من خلال هذه الأقسام والتقسيمات أن حازما عمد إلى ضبط مادّة كتابه بخُطة منهجية واضحة، حيث جعل الكتاب في أربعة أقسام (ومعها القسم الأول المفقود)**(ينظر: الملحق الذي وضعه المحقق محمد الحبيب بن الخوجة في آخر كتاب المنهاج. ، ص ص 512-518)**، كل قسم يتفرع إلى أربعة مناهج، وجعل لكل منهج مجموعة من المعالم والمعارف، تتخللها إضاءات وتنويرات للشرح والتوضيح، كما استعمل مصطلحا آخر وهو المأمّ، وقد حرص حازم على هذه الخطة في توزيع مادة الكتاب لتحصيل المنفعة الدقيقة، لذلك يقول «وإنما نتحرّى أن نعدل بين الأبواب أو نقارب العدل في ما نذكره، ليكون كل باب قد تضمّن قسطا مقنعا مما يجب، فأما ما وراء الإقناع، فلا يمكن استقصاء ذلك في باب، فإن ذلك يضاعف حجم الكتاب». **(حازم القرطاجني، 1986، ص 37)**

هكذا وضع حازم لنفسه منهجا للتأليف يختلف عن مناهج النقاد والبلاغيين والفلاسفة الذين سبقوه، مستفيدا من جهودهم، مضيفا إليها لمساته كشاعر وكقارئ دقيق لمنجزاتهم.

4. خاتمة:

يمكن القول في خاتمة هذه الدراسة أن حازما قدّم رؤيته النقدية الخالصة في ظل ظروف أملتها حال الأندلس في القرن السابع الهجري، وفي مرحلة قلّ فيها الاهتمام بالشعر وأهله، وبالمعرفة عموما، ليأتي كتاب المنهاج ويحاول التأصيل والتقعيد لعلم يضبط الممارسة الشعرية بعد أن استسهلها أشباه الشعراء، وكان ذلك وفق منهج واضح قسّم فيه أبواب الكتاب بمنظومة اصطلاحية دقيقة شكّلت نقلة فكرية وفلسفية رائدة في تاريخ النقد الأدبي.

5. المصادر والمراجع:

1) إحسان عباس. (1978م). تاريخ النقد الأدبي عند العرب. بيروت لبنان: دار الثقافة، الطبعة الثانية.
2) جابر عصفور. (1982). مفهوم الشعر دراسات في التراث النقدي. بيروت ، لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية.
3) جلال الدين السيوطي1964(.م .)بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مطبعة عيسى البابلي الحلبي ، الطبعة الأولى.
4) حازم القرطاجني. (1986). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. لبنان: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة.
5) ينظر: الملحق الذي وضعه المحقق محمد الحبيب بن الخوجة في آخر كتاب المنهاج. . (د. ت).
6) ينظر: مقدمة محمد الحبيب بن الخوجة لكتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء " لحازم القرطاجني. (1986م). بيروت ، لبنان: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة.